

تذكيرُ المؤمنين أن الأعمالَ بالخواتيم

عناصر الخطبة

مقدمة

قواعد مهمة لا بد من اعتقادها

الأعمال بالخواتيم

خوف السلف من الخواتيم

من عاش على شيء مات عليه غالباً إن شاء الله

التفصيل

مقدمة: إن تَذَكَّرَ هذا الأمر لتطير له ألبابُ العقلاء، وتنفطرُ منه قلوبُ الأتقياء، وتنصدعُ له أكبادُ الأولياء، كيف لا والخاتمةُ مُغَيَّبَةٌ، والعاقبةُ مستورةٌ، واللهُ غالبٌ على أمره وهو سبحانه {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٢٣] وَلَقَدْ قَطَعَ خَوْفُ الْخَاتِمَةِ ظُهُورَ الْمُتَّقِينَ، وَكَانَ الْمُسِيئِينَ الظَّالِمِينَ قَدْ أَخَذُوا تَوْفِيعًا بِالْأَمَانِ {أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِالْعَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ - سَلِّمُوا بِهِمْ بِذَلِكَ زَعِيمٌ} [سورة القلم: ٣٩ - ٤٠]

كَمَا قِيلَ:

يَا أَيْمَانًا مِنْ قَبِيحِ الْفِعْلِ مِنْهُ أَهْلٌ . . . أَتَاكَ تَوْفِيعٌ أَمِنْ أَنْتَ تَمْلِكُهُ

جَمَعْتَ شَيْئَيْنِ أَمْنًا وَاتِّبَاعَ هَوَى . . . هَذَا وَإِحْدَاهُمَا فِي الْمَرْءِ تُهْلِكُهُ

وَالْمُحْسِنُونَ عَلَى دَرَبِ الْمَخَافَةِ قَدْ . . . سَارُوا وَذَلِكَ دَرَبٌ لَسْتَ تَسْلُكُهُ

فَرَطْتَ فِي الزَّرْعِ وَقْتَ الْبَدْرِ مِنْ سَفَهٍ . . . فَكَيْفَ عِنْدَ حَصَادِ النَّاسِ تُدْرِكُهُ. [٢١]

قاعدة: كل شيءٍ مُقدَّرٌ قَبْلَ خَلْقِهِ وَإِيجَادِهِ:

قال ابن حجر -رحمه الله-: وَالْمُرَادُ بِالْقَدْرِ: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى عَلِمَ مَقَادِيرَ الْأَشْيَاءِ وَأَزْمَانَهَا قَبْلَ إِيجَادِهَا ثُمَّ أُوجِدَ مَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ أَنَّهُ يُوجَدُ فَكُلُّ مُحَدَّثٍ صَادِرٌ عَنْ عِلْمِهِ وَقُدْرَتِهِ وَإِرَادَتِهِ. (٢٧)

قاعدة: مراتب الإيمان بالقدر

قال ابن رجب -رحمه الله-: وَالْإِيمَانُ بِالْقَدْرِ عَلَى دَرَجَتَيْنِ: إِحْدَاهُمَا: الْإِيمَانُ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى سَبَقَ فِي عِلْمِهِ مَا يَعْمَلُهُ الْعِبَادُ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ، وَطَاعَةٍ وَمَعْصِيَةٍ، قَبْلَ خَلْقِهِمْ وَإِيجَادِهِمْ، وَمَنْ هُوَ مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَمَنْ هُوَ مِنْهُمْ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَأَعَدَّ لَهُمُ الثَّوَابَ وَالْعِقَابَ جَزَاءً لِأَعْمَالِهِمْ قَبْلَ خَلْقِهِمْ وَتَكْوِينِهِمْ، وَأَنَّهُ كَتَبَ ذَلِكَ عِنْدَهُ وَأَحْصَاهُ، وَأَنَّ أَعْمَالَ الْعِبَادِ تَجْرِي عَلَى مَا سَبَقَ فِي عِلْمِهِ وَكِتَابِهِ. وَالدَّرَجَةُ الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ أَفْعَالَ الْعِبَادِ كُلِّهَا مِنَ الْكُفْرِ، وَالْإِيمَانِ، وَالطَّاعَةِ، وَالْعِصْيَانِ، وَشَاءَهَا مِنْهُمْ. (٢٨)

قاعدة: ما سبق في علم الله عز وجل لا يتغير.

قال ابن حجر -رحمه الله-: فَالَّذِي سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ لَا يَتَغَيَّرُ وَلَا يَتَبَدَّلُ، وَأَنَّ الَّذِي يَجُوزُ عَلَيْهِ التَّغْيِيرُ وَالتَّبَدُّلُ مَا يَبْدُو لِلنَّاسِ مِنْ عَمَلِ الْعَامِلِ، وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يَتَعَلَّقَ ذَلِكَ بِعِنْيِ التَّغْيِيرِ وَالتَّبَدُّلِ { بِمَا فِي عِلْمِ الْحَفَظَةِ وَالْمُوكِّلِينَ بِالْأَدْمِيِّ فَيَقَعُ فِيهِ الْمَحْوُ وَالتَّابِتَاتُ كَالزِّيَادَةِ فِي الْعُمُرِ وَالنَّقْصِ وَأَمَّا مَا فِي عِلْمِ اللَّهِ فَلَا مَحْوَ فِيهِ وَلَا إِثْبَاتَ. (٢٩)

قاعدة: ولا يظلم ربك أحداً.

قال تعالى {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩] وقال سبحانه {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ} [النساء: ٤٠] وقال تعالى {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ} [يونس: ٤٤] فالله سبحانه قَادِرٌ عَلَى الظُّلْمِ، وَلَكِنَّهُ لَا يَفْعَلُهُ فَضْلاً مِنْهُ وَجُودًا وَكَرَمًا وَإِحْسَانًا إِلَى عِبَادِهِ. والدليل قوله تعالى في الحديث القدسي ((يَا عِبَادِي إِنَّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي)) (٣٠)

قال الطحاوي - رحمه الله -: خَلَقَ الخَلْقَ بعِلْمِهِ، وَقَدَّرَ لَهُمُ أَقْدَارًا، وَضَرَبَ لَهُمُ آجَالًا، وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ شَيْءٌ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ، وَعَلِمَ مَا هُمْ عَامِلُونَ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَهُمْ، وَأَمَرَهُمُ بِطَاعَتِهِ وَنَهَاهُمْ عَنِ مَعْصِيَتِهِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَجْرِي بِتَقْدِيرِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَشِيئَتُهُ تَنْفُذُ، لَا مَشِيئَةَ لِلْعِبَادِ إِلَّا مَا شَاءَ لَهُمْ، فَمَا شَاءَ لَهُمْ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ، يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي فَضْلًا، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيُخْذِلُ وَيَبْتَلِي عَدْلًا، وَكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي مَشِيئَتِهِ بَيْنَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ. (٢٦١)

قال الشيخ حافظ حكيم - رحمه الله -:

مُنْفَرِدٌ بِالْخَلْقِ وَاللِّرَادَةِ. . . وَحَاكِمٌ -جَلَّ- بِمَا أَرَادَهُ

فَمَنْ يَشَأُ وَفَقَهُ بِفَضْلِهِ. . . وَمَنْ يَشَأُ أَضَلَّهُ بِعَدْلِهِ

فَمِنْهُمْ الشَّقِيُّ وَالسَّعِيدُ. . . وَذَا مُقَرَّبٌ وَذَا طَرِيدٌ

لِحِكْمَةٍ بِالْغَةِ قَضَاهَا. . . يَسْتَوْجِبُ الْحَمْدَ عَلَى اقْتِضَائِهَا. (٢٦١)

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: فَالْعَبْدُ عَلَيْهِ أَنْ يَعْتَرِفَ بِعَدْلِ اللَّهِ وَإِحْسَانِهِ فَإِنَّهُ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا، فَلَا يُعَاقِبُ أَحَدًا إِلَّا بِذَنْبِهِ، فَكُلُّ نِعْمَةٍ مِنْهُ عَدْلٌ وَكُلُّ نِعْمَةٍ مِنْهُ فَضْلٌ. (٢٨١)

٣- الأعمال بالخواتيم:

فَالْأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا، وَالْعَاقِبَةُ مَسْتُورَةٌ. كَمَا قِيلَ:

لَا يَغُرُّنَّكَ صَفَا الْأَوْقَاتِ. . . فَإِنَّ تَحْتَهَا غَوَامِضَ الْأَفَاتِ

فَكَمْ مِنْ رَبِيعٍ نَوَّرَتْ أَشْجَارُهُ، وَتَفَتَّحَتْ أَزْهَارُهُ، وَزَهَتْ ثِمَارُهُ، لَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ سَمَاوِيَّةٌ. فَصَارَ كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ { حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ

يَتَفَكَّرُونَ} [يونس: ٢٤]. فليَسَ الْعَجَبُ مِمَّنْ هَلَكَ كَيْفَ هَلَكَ؟ إِنَّمَا الْعَجَبُ مِمَّنْ نَجَا كَيْفَ نَجَا؟
تَعَجَّبِينَ مِنْ سَقَمِي. . . صِحَّتِي هِيَ الْعَجَبُ

* وَالنَّاكِصُونَ عَلَى أَعْقَابِهِمْ أَضْعَافُ أَضْعَافٍ مِمَّنْ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ. [٩١]

فربما سلك الإنسان في أول أمره على الصراط المستقيم ثم يَنحَرِفُ عَنْهُ آخِرَ عُمُرِهِ فَيَسْلُكُ سُبُلَ الشَّيْطَانِ فَيَنْقَطِعُ عَنِ اللَّهِ فَيَهْلِكُ. فما أَصْعَبَ الْإِنْتِقَالَ مِنَ الْبَصْرِ إِلَى الْعَمَى، ، وَأَصْعَبَ مِنْهُ الضَّلَالَةُ بَعْدَ الْهُدَى، وَالْمَعْصِيَةُ بَعْدَ التَّقَى. ، كَمْ مِنْ وُجُوهُ خَاشِعَةٌ وَقَعَتْ عَلَى قَصَصِ أَعْمَالِهَا {عَامِلَةٌ نَاصِيَةٌ، تَصَلَّى نَارًا حَامِيَةً}، كَمْ مِنْ شَارِفٍ مَرَكَبُهُ سَاحِلُ النَّجَاةِ، فَلَمَّا هَمَّ أَنْ يَرْتَقِيَ لَعِبَ بِهِ مَوْجُ الْهَوَى فَعَرِقَ. ، الْخَلْقُ كُلُّهُمْ تَحْتَ هَذَا الْخَطَرِ، قُلُوبُ الْعِيَادِ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ. [١٠٧] ما أكثر من يرجع أثناء الطريق أو ينقطع، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، {يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ} [إبراهيم: ٢٧].

خَلِيلِي قُطَاعِ الْفِيَا فِي إِلَيَّ الْحَمَا * كَثِيرٌ وَأَمَّا الْوَاصِلُونَ قَلِيلٌ. [١١٦]

وانظر أخي المسلم إلى هذه الأحاديث بعين البصيرة:

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: أَنَّ رَجُلًا مِنْ أَعْظَمِ الْمُسْلِمِينَ غَنَاءً عَنِ الْمُسْلِمِينَ، فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فَنَظَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فَقَالَ: ((مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الرَّجُلِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا)) فَاتَّبَعَهُ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ، وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَلَى الْمُشْرِكِينَ، حَتَّى جُرِحَ، فَاسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ، فَجَعَلَ ذُبَابَةً سَيْفِهِ بَيْنَ تَدْيِيهِ حَتَّى خَرَجَ مِنْ بَيْنِ كَتِفَيْهِ، فَأَقْبَلَ الرَّجُلُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مُسْرِعًا، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ: ((وَمَا ذَلِكَ)) قَالَ: قُلْتَ لِفُلَانٍ: ((مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَلْيَنْظُرْ إِلَيْهِ)) وَكَانَ مِنْ أَعْظَمِنَا غَنَاءً عَنِ الْمُسْلِمِينَ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَا يَمُوتُ عَلَى ذَلِكَ، فَلَمَّا جُرِحَ اسْتَعْجَلَ الْمَوْتَ فَقَتَلَ نَفْسَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عِنْدَ ذَلِكَ: ((إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ عَمَلًا أَهْلُ النَّارِ وَإِنَّهُ

مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَيَعْمَلُ عَمَلًا أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ)) [١٢٧]

وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: ((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ لَمَكْتُوبٌ فِي الْكِتَابِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ مَوْتِهِ تَحَوَّلَ فَعَمِلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَمَاتَ وَدَخَلَ النَّارَ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّهُ لَمَكْتُوبٌ فِي الْكِتَابِ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَإِذَا كَانَ عِنْدَ مَوْتِهِ تَحَوَّلَ فَعَمِلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمَاتَ وَدَخَلَ الْجَنَّةَ)). (٢١٣٦)

وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَهُوَ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ((إِنْ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ عَاقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ فِي ذَلِكَ مُضْعَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يُرْسَلُ الْمَلَكُ فَيَنْفُخُ فِيهِ الرُّوحَ، وَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: بَكْتَبِ رِزْقِهِ، وَأَجَلِهِ، وَعَمَلِهِ، وَشَقِيٍّ أَوْ سَعِيدٍ، فَوَالَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ إِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، فَيَدْخُلُهَا، وَإِنْ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ، فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ، فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَدْخُلُهَا)) (٢١٤١)

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، قَالَ: ((إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَانَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الزَّمَانَ الطَّوِيلَ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ، ثُمَّ يُخْتَمُ لَهُ عَمَلُهُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ)). (٢١٥٧)

وفي حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قَالَ: " لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَعْجَبُوا بِأَحَدٍ، حَتَّى تَنْظُرُوا بِمِ يَخْتَمُ لَهُ، فَإِنَّ الْعَامِلَ يَعْمَلُ زَمَانًا مِنْ عُمْرِهِ، أَوْ بُرْهَةً مِنْ دَهْرِهِ، بِعَمَلِ صَالِحٍ، لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا سَيِّئًا، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْبُرْهَةَ مِنْ دَهْرِهِ بِعَمَلِ سَيِّئٍ، لَوْ مَاتَ عَلَيْهِ دَخَلَ النَّارَ، ثُمَّ يَتَحَوَّلُ فَيَعْمَلُ عَمَلًا صَالِحًا، وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا اسْتَعْمَلَهُ قَبْلَ مَوْتِهِ "، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ يَسْتَعْمَلُهُ؟ قَالَ " يُوقِّعُهُ لِعَمَلٍ صَالِحٍ، ثُمَّ يَقْبِضُهُ عَلَيْهِ " (٢١٦٦)

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنُفُوسَةٍ، إِلَّا وَقَدْ كَتَبَ اللَّهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلَّا وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً)) قَالَ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نَمَكْتُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ فَقَالَ: ((مَنْ

كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ)) فَقَالَ: ((اعْمَلُوا فُكُلَ مَيْسَرٍ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ))، ثُمَّ قَرَأَ: {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى، وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى، فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى، وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى، وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى} [الليل: ٦]. [١٧٧]

وَيَسْتَفَادُ مِنْ مَجْمُوعِ مَا سَبَقَ مِنَ الرِّوَايَاتِ:

١- أَنَّ الْأَعْمَالَ حَسَنَهَا وَسَيِّئَهَا أَمَارَاتٌ وَلَيْسَتْ بِمُوجِبَاتٍ وَأَنَّ مَصِيرَ الْأُمُورِ فِي الْعَاقِبَةِ إِلَى مَا سَبَقَ بِهِ الْقَضَاءُ وَجَرَى بِهِ الْقَدَرُ فِي الْبَائِدَاءِ قَالَهُ الْخَطَّابِيُّ.

٢- وَفِيهَا أَنَّ السَّعِيدَ قَدْ يَشْقَى وَأَنَّ الشَّقِيَّ قَدْ يَسْعُدُ لَكِنْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْأَعْمَالِ الظَّاهِرَةِ وَأَمَّا مَا فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى فَلَا يَتَغَيَّرُ.

٣- وَفِيهَا أَنَّ الْعِتَابَ بِالْخَاتِمَةِ. قَالَ ابْنُ أَبِي جَمْرَةَ: هَذِهِ الَّتِي قَطَعَتْ أَعْنَاقَ الرَّجَالِ مَعَ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ حُسْنِ الْحَالِ لِأَنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ بِمَاذَا يُخْتَمُ لَهُمْ.

٤- وَفِيهَا أَنَّ عُمُومَ مِثْلِ قَوْلِهِ تَعَالَى "مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً" الْآيَةَ. مَخْصُوصٌ بِمَنْ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ وَأَنَّ مَنْ عَمِلَ السَّعَادَةَ وَخَتِمَ لَهُ بِالشَّقَاءِ فَهُوَ فِي طُولِ عُمُرِهِ عِنْدَ اللَّهِ شَقِيٌّ وَبِالعَكْسِ وَمَا وَرَدَ مِمَّا يُخَالِفُهُ يُؤُولُ إِلَى أَنْ يُؤُولَ إِلَى هَذَا.

٥- وَفِيهَا أَنَّ فِي تَقْدِيرِ الْأَعْمَالِ مَا هُوَ سَابِقٌ وَلَا حَاقِقٌ فَالسَّابِقُ مَا فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَاللَّاحِقُ مَا يُقَدَّرُ عَلَى الْجَنِينِ فِي بَطْنِ أُمِّهِ.

٦- وَفِيهَا الْحَثُّ عَلَى السَّعَادَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنْ سُوءِ الْخَاتِمَةِ وَقَدْ عَمِلَ بِهِ جَمْعٌ جَمٌّ مِنَ السَّلَفِ وَأَتَمَّةِ الْخَلْفِ. وَأَمَّا مَا قَالَ عَبْدُ الْحَقِّ فِي كِتَابِ الْعَاقِبَةِ: إِنَّ سُوءَ الْخَاتِمَةِ لَا يَقَعُ لِمَنْ اسْتَقَامَ بِأَطْنَةِ وَصَلَحَ ظَاهِرُهُ وَإِنَّمَا يَقَعُ لِمَنْ فِي طَوِيَّتِهِ فَسَادٌ أَوْ ارْتِيَابٌ وَيَكْثُرُ وَقُوعُهُ لِلْمَصْرِ عَلَى الْكِبَائِرِ

والمجتري على العظام فيهم عليه الموت بغنة فيصنطلمه الشيطان عند تلك الصدمة فقد يكون ذلك سببا لسوء الخاتمة نسأل الله السلامة فهو محمول على الأكثر الأغلب.

٧- وفيها أن الأقدار غالبية والعاقبة غائبة فلا ينبغي لأحد أن يعتر بظاهر الحال ومن ثم شرع الدعاء بالثبات على الدين وبحسن الخاتمة. (٢١٨)

قال ابن بطال: في تغيب خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة وتدبير لطيف لأنه لو علم وكان ناجيا أعجب وكسل وإن كان هالكا ازداد عتوا فحجب عنه ذلك ليكون بين الخوف والرجاء. (٢١٩)

* ففي هذا الحديث أن السعادة والشقاوة قد سبق الكتاب بهما، وأن ذلك مقدر بحسب الأعمال، وأن كلا ميسر لما خلق له من الأعمال التي هي سبب للسعادة أو الشقاوة. (٢٢٠)

* أن خاتمة السوء تكون بسبب دسياسة باطنة للعبد لا يطلع عليها الناس، إما من جهة عمل سيئ ونحو ذلك، فتلك الخصلة الخفية توجب سوء الخاتمة عند الموت، وكذلك قد يعمل الرجل عمل أهل النار وفي باطنه خصلة خفية من خصال الخير، فتغلب عليه تلك الخصلة في آخر عمره، فتوجب له حسن الخاتمة. قال عبد العزيز بن أبي رواد: حضرت رجلا عند الموت يلقن لا إله إلا الله، فقال في آخر ما قال: هو كافر بما تقول، ومات على ذلك، قال فسألت عنه، فإذا هو مذموم خمر. فكان عبد العزيز يقول: اتقوا الذنوب، فإنها هي التي أوقعته. وفي الجملة: فالخواتيم ميراث السوابق، فكل ذلك سبق في الكتاب السابق. (٢٢١)

خوف السلف من سوء الخاتمة:

قال الإمام ابن بطة: اعلموا رحمنا الله وإياكم أن من شأن المؤمنين وصفاتهم وجود الإيمان فيهم، ودوام الشفاق على إيمانهم، وشدة الحذر على أديانهم، فقلوبهم وجلة من خوف السلب، قد أحاط بهم الوجل، لا يذرون ما الله صانع بهم في بقية أعمارهم، خائفين من حلول مكر الله بهم في سوء الخاتمة، لا يذرون على ما يصبحون ويمسون، قد أورتهم ما حذرهم تبارك وتعالى الوجل في كل قدم حين يقول: {وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت} [لقمان: ٣٤]. فهم بالحال التي وصفهم بها عز وجل حيث يقول: {والذين يؤتون ما أتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى

رَبَّهُمْ رَاجِعُونَ} [المؤمنون: ٦٠]. فَهُمْ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ، وَيَخَافُونَ سَلْبَهَا وَالرُّجُوعَ عَنْهَا، وَيَجَانِبُونَ الْفَوَاحِشَ وَالْمُنْكَرَاتِ، وَهُمْ وَجِلُونَ مِنْ مُوَاقِعَتِهَا. (٢٢٧)

* لَقَدْ كَانَ يَشْتَدُّ خَوْفُ السَّلْفِ مِنْ سُوءِ الْخَوَاتِيمِ، وَمِنْهُمْ مَنْ كَانَ يَفْلِقُ مِنْ ذِكْرِ السَّوَابِقِ. وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ قُلُوبَ الْأَبْرَارِ مُعَلَّقَةٌ بِالْخَوَاتِيمِ، يَقُولُونَ: بِمَاذَا يُخْتَمُ لَنَا؟ وَقُلُوبُ الْمُفْرَبِينَ مُعَلَّقَةٌ بِالسَّوَابِقِ، يَقُولُونَ: مَاذَا سَبَقَ لَنَا.

وَبَكَى بَعْضُ الصَّحَابَةِ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَسُئِلَ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يَقُولُ: " (إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَبِضَ خَلْقَهُ قَبْضَتَيْنِ، فَقَالَ: هَوْلَاءُ فِي الْجَنَّةِ، وَهَوْلَاءُ فِي النَّارِ) " وَلَا أُدْرِي فِي أَيِّ الْقَبْضَتَيْنِ كُنْتُ؟.

وَقَالَ سُفْيَانُ لِبَعْضِ الصَّالِحِينَ: هَلْ أَبْكَاكَ قَطُّ عِلْمُ اللَّهِ فِيكَ؟ فَقَالَ لَهُ ذَلِكَ الرَّجُلُ: تَرَكَنِي لَا أَفْرَحُ أَبَدًا.

وَكَانَ سُفْيَانُ يَشْتَدُّ قَلْقُهُ مِنَ السَّوَابِقِ وَالْخَوَاتِيمِ، فَكَانَ يَبْكِي وَيَقُولُ: أَخَافُ أَنْ أَكُونَ فِي أُمَّ الْكِتَابِ شَقِيًّا، وَيَبْكِي، وَيَقُولُ: أَخَافُ أَنْ أُسَلَّبَ الْإِيمَانَ عِنْدَ الْمَوْتِ.

وَكَانَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ يَقُومُ طُولَ لَيْلِهِ قَابِضًا عَلَى لِحْيَتِهِ، وَيَقُولُ: يَا رَبِّ، قَدْ عَلِمْتَ سَاكِنَ الْجَنَّةِ مِنْ سَاكِنِ النَّارِ، فَفِي أَيِّ الدَّارَيْنِ مَنَزَلُ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ؟.

وَقَالَ حَاتِمُ الْأَصَمِّ: مَنْ خَلَا قَلْبُهُ مِنْ ذِكْرِ أَرْبَعَةِ أخطارٍ، فَهُوَ مُغْتَرٌّ، فَلَا يَأْمَنُ الشَّقَاءَ: الْأَوَّلُ: خَطَرُ يَوْمِ الْمِيثَاقِ حِينَ قَالَ: هَوْلَاءُ فِي الْجَنَّةِ وَلَا أَبَالِي، وَهَوْلَاءُ فِي النَّارِ وَلَا أَبَالِي، فَلَا يَعْلَمُ فِي أَيِّ الْفَرِيقَيْنِ كَانَ، وَالثَّانِي: حِينَ خُلِقَ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ، فَنُودِيَ الْمَلَكُ بِالسَّعَادَةِ وَالشَّقَاوَةِ، وَلَا يَدْرِي: أَمِنَ الْأَشْقِيَاءَ هُوَ أَمْ مِنَ السُّعْدَاءِ؟ وَالثَّلَاثُ: ذِكْرُ هَوْلِ الْمَطْلَعِ، وَلَا يَدْرِي أَيُّبَشِّرُ بِرِضَا اللَّهِ أَوْ بِسُخْطِهِ؟ وَالرَّابِعُ: يَوْمَ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا، وَلَا يَدْرِي، أَيُّ الطَّرِيقَيْنِ يُسَلِّكُ بِهِ.

وَمِنْ هُنَا كَانَ الصَّحَابَةُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ يَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمُ النِّفَاقَ وَيَشْتَدُّ قَلْبُهُمْ وَجَزَعُهُمْ مِنْهُ،

قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: " أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَى إِيْمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ.

وَكَانَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ يَقُولُ لِحَدِيثِهِ: أَنْشُدَكَ اللهُ هَلْ سَمَّيْتَنِي لَكَ رَسُولُ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، يَعْنِي فِي الْمُنَافِقِينَ، فَيَقُولُ: لَأ، وَلَا أُزَكِّي بَعْدَكَ أَحَدًا.

وَسُئِلَ أَبُو رَجَاءٍ الْعُطَارِدِيُّ: هَلْ أَدْرَكْتَ مَنْ أَدْرَكْتَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَخْشَوْنَ النِّفَاقَ؟ فَقَالَ: نَعَمْ.

وَيُذَكِّرُ عَنِ الْحَسَنِ: " مَا خَافَهُ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا أَمَنَهُ إِلَّا مُنَافِقٌ. (٢٢٣)

وَسَمِعَ حَدِيثَهُ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - رَجُلًا يَقُولُ: اللَّهُمَّ أَهْلِكَ الْمُنَافِقِينَ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي، لَوْ هَلَكَ الْمُنَافِقُونَ لَأَسْتَوْحَشْتُمْ فِي طُرُقَاتِكُمْ مِنْ قِلَّةِ السَّالِكِ. (٢٢٤)

وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّيْمِيُّ: مَا عَرَضْتُ قَوْلِي عَلَى عَمَلِي إِلَّا خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ مُكَذِّبًا. (٢٥١)

* تَاللَّهِ لَقَدْ قَطَعَ خَوْفُ النِّفَاقِ قُلُوبَ السَّابِقِينَ الْأَوَّلِينَ، لِعِلْمِهِمْ بِدِقِّهِ وَجَلِّهِ وَتَفَاصِيلِهِ وَجَمَلِهِ، سَاءَتْ ظُنُونُهُمْ بِنَفْسِهِمْ حَتَّى خَشَوْا أَنْ يَكُونُوا مِنْ جُمْلَةِ الْمُنَافِقِينَ. (٢٢٦)

لَمَّا نَزَلَ الْمَوْتُ بِسُلَيْمَانَ النَّيْمِيِّ قِيلَ لَهُ: أَبَشِرْ فَقَدْ كُنْتَ مُجْتَهِدًا فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى فَقَالَ: لَأ تَقُولُوا هَكَذَا فَإِنِّي لَأ أُدْرِي مَا يَبْدُو لِي مِنَ اللهِ عِزٍّ وَجَلٍّ فَإِنَّهُ يَقُولُ سُبْحَانَهُ {وَبَدَأَ لَهُمْ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} قَالَ بَعْضُهُمْ: عَمِلُوا أَعْمَالًا كَانُوا يظنون أَنَّهَا حَسَنَاتٌ فوجدوها سيئات. (٢٢٧)

وعن محمد بن المنكدر: أنه بينا هو ذات ليلة يصلي بكي، وكثر بكأوه ففرغ أهله فتمادى في البكاء، فأرسلوا إلى أبي حازم فجاء، فإذا هو يبكي، فقال: يا أخي ما الذي أبكاك قد رعت أهلك؟ فقال: مرت بي آية من كتاب الله عز وجل. قال: وما هي؟ قال: قول الله عز وجل: {وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ

اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} فبكى أبو حازم معه واشتد بكاؤهما. فقال بعض أهله لأبي حازم: جئنا بك لتفرِّج عنه فزدته. قال: فأخبرهم ما الذي أبكاهما. (٢٢٨)

قال الفضيل بن عياض: في قول الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} قال: أتوا بأعمال ظنوها حسنة، فإذا هي سيئات. فسمع هذا يحيى بن معين فبكى واشتد بكاؤه. (٢٢٩)

* إياك ثم إياك أن تثق في عملك وتأمين مكر الله:

كَانَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي دُعَائِهِ: ((يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ))

فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: ((يَا مُقَلَّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ))، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: ((نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ)) (٣٠٦)

* فكيف يأمن المرء من سوء الخاتمة وقد ورد في الحديث، أَنَّ أُمَّ الْعَلَاءِ الْأَنْصَارِيَّةَ -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- دَخَلَتْ عَلَى عُمَانَ بْنِ مَطْعُونٍ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- حِينَ تَوَفَّى، فَقَالَتْ: رَحِمَهُ اللهُ عَلَيْكَ أَبَا السَّائِبِ، فَشَهِدَتْنِي عَلَيْكَ: لَقَدْ أَكْرَمَكَ اللهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ((وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَكْرَمَهُ؟)) فَقُلْتُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَمَنْ يُكْرِمُهُ اللهُ؟ فَقَالَ: ((أَمَّا هُوَ فَقَدْ جَاءَهُ الْيَقِينُ، وَاللَّهُ إِنِّي لَأَرْجُو لَهُ الْخَيْرَ، وَاللَّهُ مَا أَدْرِي، وَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ، مَا يُفْعَلُ بِي)) قَالَتْ: فَوَاللَّهِ لَا أُزَكِّي أَحَدًا بَعْدَهُ أَبَدًا. (٣١٦)

فالذي يقول ذلك رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، فماذا نقول نحن؟!!

قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: إِنْ الْعَبْدُ لِيَعْمَلَ الْحَسَنَةَ فَيَدْخُلَ بِهَا النَّارَ وَإِنْ الْعَبْدُ لِيَعْمَلَ السَّيِّئَةَ فَيَدْخُلَ بِهَا الْجَنَّةَ وَذَلِكَ أَنَّهُ يَعْمَلُ الْحَسَنَةَ فَتَكُونُ نَصَبَ عَيْنَةٍ وَيَعْجَبُ بِهَا وَيَعْمَلُ السَّيِّئَةَ فَتَكُونُ نَصَبَ عَيْنَةٍ فَيَسْتَغْفِرُ اللهُ وَيَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْهَا. (٣٢٦)

* قَالَ رَجُلٌ لِعَبْدِ اللَّهِ ابْنِ الْمُبَارَكِ: رَأَيْتُ رَجُلًا يُفَبِّلُ شَابًّا فَظَنَنْتُ فِي نَفْسِي أَنِّي خَيْرٌ مِنْهُ. فَقَالَ: أَمْنُكَ عَلَى نَفْسِكَ أَشَدُّ مِنْ ذَنْبِهِ. قَالَ الطَّبْرِيُّ: لِأَنَّهُ لَا يَدْرِي مَا يُوُولُ إِلَيْهِ الْأَمْرُ لَعَلَّ صَاحِبَهُ يُتُوبُ فَتُقْبَلُ تَوْبَتُهُ وَلَعَلَّ الَّذِي أَنْكَرَ عَلَيْهِ يُخْتَمُ لَهُ بِخَاتِمَةِ السُّوءِ. (٢٣٦)

عَنْ أَبِي أَيُّوبَ الْأَنْصَارِيِّ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ: إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ فَيَتَّقِي بِهَا وَيَنْسَى الْمُحَقَّرَاتِ فَيَلْقَى اللَّهَ وَقَدْ أَحَاطَتْ بِهِ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ السَّيِّئَةَ فَلَا يَزَالُ مِنْهَا مُشْفِقًا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ آمِنًا. (٢٣٤) قَالَ ابْنُ الْقَيْمِ: وَأَمَّا إِنْ كَانَ {أَيُّ الْعَبْدِ} مُسْتَقِيمًا مَعَ اللَّهِ، فَخَوْفُهُ يَكُونُ مَعَ جَرِيَانِ الْأَنْفَاسِ، لَعَلَّمَهُ بِأَنَّ اللَّهَ مَقْلَبُ الْقُلُوبِ، وَمَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يَزِيغَهُ أَزَاغَهُ. (٢٣٥)

قَالَ ابْنُ حَجْرٍ: فَالْعَبْدُ إِنْ كَانَ مُسْتَقِيمًا فَخَوْفُهُ مِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ لِقَوْلِهِ تَعَالَى {لِحَوْلِ بَيْنِ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ}. (٢٣٦)

وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ النَّيْمِيُّ -رَحِمَهُ اللَّهُ-، يَقْصُ، وَيَقُولُ فِي قَصَصِهِ: " مَنْ يَأْمَنُ مِنَ الْبَلَاءِ بَعْدَ خَلِيلِ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حِينَ يَقُولُ: {وَاجْتَنِبِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} [إِبْرَاهِيمَ: ٣٥] " (٢٣٧)

وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: يُعَذَّبُ الرَّجُلُ فِي النَّارِ أَلْفَ سَنَةٍ ثُمَّ يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَى الْجَنَّةِ، ثُمَّ قَالَ الْحَسَنُ: يَا لَيْتَنِي كُنْتُ أَنَا ذَلِكَ الرَّجُلَ. ، وَإِنَّمَا قَالَ الْحَسَنُ ذَلِكَ لِأَنَّهُ خَافَ عَاقِبَةَ أَمْرِهِ، هَكَذَا كَانَ الصَّالِحُونَ يَخَافُونَ خَاتِمَةَ أَمْرِهِمْ. (٢٣٨)

قَالَ حَاتِمُ الْأَصَمِّ: لَا تَغْتَرَّ بِمَكَانٍ صَالِحٍ، فَلَا مَكَانَ أَصْلَحَ مِنَ الْجَنَّةِ، وَلَقِي فِيهَا آدَمَ مَا لَقِي، وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْعِبَادَةِ، فَإِنَّ إِبْلِيسَ بَعْدَ طَوْلِ الْعِبَادَةِ لَقِيَ مَا لَقِيَ، وَلَا تَغْتَرَّ بِكَثْرَةِ الْعِلْمِ، فَإِنَّ بَلْعَامَ بْنَ بَاعُورًا لَقِيَ مَا لَقِيَ وَكَانَ يَعْرِفُ الْأَسْمَ الْأَعْظَمَ، وَلَا تَغْتَرَّ بِإِلْقَاءِ الصَّالِحِينَ وَرُؤْيَيْهِمْ، فَلَا شَخْصَ أَصْلَحَ مِنَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِإِلْقَائِهِ أَعْدَاؤُهُ وَالْمُنَافِقُونَ. (٢٣٩)

قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ: إِنْ الْمُؤْمِنَ أَسِيرٌ فِي الدُّنْيَا يَسْعَى فِي فَكَاكِ رَقَبَتِهِ لَا يَأْمَنُ شَيْئًا حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَأْخُودٌ عَلَيْهِ فِي سَمْعِهِ، وَفِي بَصَرِهِ، وَفِي لِسَانِهِ، وَفِي جَوَارِحِهِ، مَأْخُودٌ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ. (٢٤٠)

وَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- صَاحِبُ رَسُولِ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يَحْلِفُ بِاللَّهِ إِنَّ مَنْ أَمِنَ السُّلْبَ عِنْدَ مَوْتِهِ سُلِبَ عِنْدَ مَوْتِهِ: أَيُّ جَزَاءٍ لَأَمْنِهِ مَكْرَ اللهِ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ: بَكَى سَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ، فَلَمَّا اشْتَدَّ الْبُكَاءُ، قَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ أَتُرَاكَ كَثِيرَ الذُّنُوبِ؟ فَرَفَعَ رَأْسَهُ وَأَخَذَ عُودًا مِنْ تِبْنِ الْأَرْضِ فَقَالَ: وَاللَّهِ لَذُنُوبِي أَهْوَنُ عِنْدِي مِنْ هَذَا، إِنِّي أَخَافُ أَنْ أُسَلَّبَ الْإِيْمَانَ قَبْلَ أَنْ أَمُوتَ.

وأخيراً: من عاش على شيء مات عليه غالباً إن شاء الله:

فَمَنْ كَانَ فِي حَالِ صِحَّتِهِ وَنَشَاطِهِ وَشَبَابِهِ، مَدَاوِمًا لِنَقْوَى رَبِّهِ وَطَاعَتِهِ، مَنِيْبًا إِلَيْهِ عَلَى الدَّوَامِ، ثَبَتَهُ اللهُ عِنْدَ مَوْتِهِ وَرَزَقَهُ حَسَنَ الْخَاتِمَةِ

قال ابن كثير -رحمه الله- تعالى: وسوء الخاتمة أعادنا الله منها لا يقع فيها من صلح ظاهره وباطنه مع الله، وصدق في أقواله وأعماله، فإن هذا لم يُسمع به، وإنما يقع سوء الخاتمة لمن فسد باطنه عقداً، وظاهره عملاً، ولمن له جرأة على الكبائر، وإقدام على الجرائم، فربما غلب ذلك عليه حتى ينزل به الموت قبل التوبة. [٤١٦]

والحمد لله رب العالمين.

[١] الداء والدواء (ص: ٩٢)

[٢] فتح الباري (١/ ١١٨)

[٣] جامع العلوم والحكم (١/ ١٠٣)

[٤] فتح الباري لابن حجر (١١/ ٤٨٨)

[٥] جامع العلوم والحكم (٢ / ٣٥)

[٦] متن الطحاوية (ص: ٣٦)

[٧] سلم الوصول (١ / ٢٩)

[٨] الفتاوى الكبرى (٥ / ٢٢٧)

[٩] مدارج السالكين (٣ / ١٢٦)

[١٠] لطائف المعارف لابن رجب (ص: ٣٤٠)

[١١] مجموع رسائل ابن رجب (٤ / ٤٢٦)

[١٢] رواه البخاري (٦٦٠٧)

[١٣] رواه أحمد (٦ / ١٠٧) وغيره، وهو حديث صحيح

[١٤] رواه البخاري (٣٢٠٨) ومسلم (٢٦٤٣)

[١٥] رواه مسلم (٢٦٥١)

[١٦] رواه أحمد (٣ / ١٢٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢ / ١٢٢٩)

[١٧] رواه البخاري (٤٩٤٨) ومسلم (٢٦٤٧)

[١٨] فتح الباري لابن حجر (١١ / ٤٨٨ - ٤٩١)

[١٩] فتح الباري لابن حجر (١١ / ٣٣٠)

[٢٠] جامع العلوم والحكم (١ / ١٦٩)

- [٢١] (جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٢)
- [٢٢] (الإبانة الكبرى لابن بطة (٢/ ٨٦٢)
- [٢٣] (جامع العلوم والحكم (٢/ ٤٩١)
- [٢٤] (مدارج السالكين (١/ ٣٦٤)
- [٢٥] (الداء والدواء (ص: ٤٢)
- [٢٦] (مدارج السالكين (١/ ٣٦٥)
- [٢٧] (العاقبة في ذكر الموت (ص: ١٣٣)
- [٢٨] (المقلق لابن الجوزي (ص: ٤٣)
- [٢٩] (تاريخ بغداد (١٥/ ٣٥٢)
- [٣٠] (رواه الترمذي (٢١٤٠) وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ٨٧١)
- [٣١] (رواه البخاري (٢٦٨٧)
- [٣٢] (التحفة العراقية (ص: ٥٧)
- [٣٣] (فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٣٠)
- [٣٤] (فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣٣٠)
- [٣٥] (طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٢٨٣)
- [٣٦] (فتح الباري لابن حجر (١١/ ٣١٣)

([٣٧]) تفسير الطبري (١٣ / ٦٨٧)

([٣٨]) تنبيه الغافلين للسمرقندي (ص: ٦١٠)

([٣٩]) مدارج السالكين (١ / ٥١٠)

([٤٠]) محاسبة النفس لابن أبي الدنيا (ص: ٦٠)

([٤١]) البداية والنهاية (٩ / ١٨٤)